المحاضرة الثانية عشر:

الأثر الصوفي في الشعر الجزائري الحديث:

إنّ استحضار التجربة الصوفية في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر ليس ترفا فنيا وفكريا ولا من قبيل الاعتقاد بالضرورة، بل هو تقنية فنية تكسو النص الإبداعي جمالا وجلالا، فالتصوف الحالي يخلو من سمات وخصائص الصوفية الأولى التي اعتنقها ابن عربي والحلاج والنفري وهو أيضا " ليس شطحا أو دروشة، وليست انزواءً أو انطواءً بل هي ثورة شعرية لتغيير الواقع والسمو بالإنسان إلى منابع الروح... فهي تجربة وجدانية تسعى إلى إحياء الجوهر الكامن من الإنسان، وخلق عالم روحي بديل على صعيد التجربة الفنية " التي يحاول الشاعر من خلالها التعبير عن معاناته وآلامه وأماله. فالنزعة الصوفية في الشعر الحديث حسب محمد هدارة " لا ترتبط ارتباطا عضويا بمذهب أدبي بعينه، فقد توجد في الكلاسيكية، أو الرومانسية، أو الواقعية، أو الرمزية، أو السريالية، أو أي مذهب أدبي آخر، ولكن في نطاق شعراء أفراد بحسب تكويناتهم الثقافية، واستعدادهم الطبيعي، لا بحسب ما يدينون به من اتجاه أدبي أو أيديولوجي"

إنّ تماسي وتماهي التجربة الشعرية مع التجربة الصوفية أو الروحانية هي " نوع من العودة إلى اللاشعور الجمعي إلى ما يتجاوز الفرد، إلى ذاكرة الإنسانية وأساطيرها إلى الماضي بوصفه نوعا من اللاوعي" ، لهذا "استغل شعراؤنا كل ما في التجارب الصوفية من معان ودلالات وحاولوا تضمينها في نصوصهم الشعرية إما بحالتها الأولى أو بتغيير لباسها الدلالي إلى لباس آخر يتوافق والسياق والتجربة الشعرية والشعورية، إذ أن مقاييس توظيف الرمز الصوفي لا تخرج بعيدا عن مقاييس توظيف الرمز الأسطوري أو الديني أو التاريخي إذ الكل يعمل على استفزاز مخيلة القارئ بما كان يملكه من ثقافة عن تلك الشخصيات أو الأحداث.".

بالاضافة أنه ليس كل تمثلٍ للتجربة الصوفية في الشعر الحديث يكون مصيرها النجاح وتحقق الانتماء والتواصل والتعالق المماثل، فالنصوص الصوفية بالرغم من اصطلاحية رموزها "هي نصوص بها من الشعرية ما يفوق أحيانا النصوص الشعرية العادية التي يلجأ فيها أصحابها إلى الرموز الإنشائية، خاصة عندما ندرك كيف تتم عملية الخلق اللغوي في النص الصوفي، حيث يفرغون اللفظة من دلالتها الأولى ويشحنونها بدلالاتهم الخاصة كلفظة الخمر، المرأة وغيرها،"فالنص الصوفي " شعري بامتياز، وكثير من الكتابات الشعرية أخفقت في توظيفه لأنه من الصعب أن تضيف إليه إضافة تكون أكثر زخمًا وإيحاءً من عرفانية النص الصوفي" وانزياح لغته التي تستهدف التعمية والغموض.

يُرجع ابراهيم رماني – في كتابه الغموض في الشعر العربي - الإخفاق في تمثل التجربة الصوفية إلى عمق التجربة واتساع آفاقها مما جعل الشاعر المعاصر يقف حائرا أمام هذا العالم الروحاني المليء بالمدهش والعجيب، سواء على المستوى الإبداعي أو على المستوى السلوكي الخاص برجالات التصوف، لذا كان التقليد أحيانا هو العلامة/ الميزة داخل النصوص الشعرية المعاصرة، لأن أصحابها لم يتمثلوا التجربة الصوفية كما تمثلها أصحابها الأصليون، بل نجد أحيانا بعض الشعراء من لا علاقة لهم بهذه التجربة لا من قريب ولا من بعيد، إذ أضحت عند بعضهم موضة للكتابة فقط، وهذا ما جعل نصوصهم تتسم بالغموض والإبهام، نتيجة إغراقهم الذاتي في الرمز الصوفي، وتكثيفه إلى حد كبير يجعل الدلالة عالما مغلقا، لا يدري مفاتيحه إلا العارف بمنعرجات الصوفية وطبقاتها السفلى ولغتها الباطنية المعقدة. بالإضافة إلى انعدام السياق الفكري والمرجعي والمعرفي المناسب لهذه الخلفيات والأجواء الروحانية العرفانية التي يتسم بها النص الصوفي، فبعض الكتاب "قلدوا أساليب الكتابة الصوفية، واستنسخوا ألفاظها ومعانيها، وقواميسها واصطلاحاتها باستخدام أفقي ساذج، أو كما هو الشأن عند بعض الحداثيين الذين رجعوا إلى النص الصوفي ابتغاء تجديد النص الحديث، أي بسبب الضرورة الفنية، والرغبة في إيجاد بناء فني مستحدث " دون إدراك واستيعاب لجوهر التجربة الصوفية الحقة والعميقة.

يحدثنا أحمد يوسف عن عجز بعض الشعراء الجزائريين في تمثل التجربة الصوفية واستيعابها يقول: "فالشعر الجزائري الموسوم بالمختلف قلما حقق هذه العرفانية على الرغم من أنها توجد في تيماته وبعضا من معجمه سواء كان ذلك في الشعر التقليدي لدى الفقهاء ورجال التصوف وشعراء جمعية العلماء المسلمين... أم في الشعر الحديث كما هو الذي عند مصطفى محمد الغماري، حيث حوّل القيم الروحية للإسلام إلى مادة شعرية تعتبر رؤيته الفكرية ". حيث يؤكد كمعظم النقاد على أن استحضار التراث الصوفي ومحاولة تمثل التجربة الصوفية لدى بعض الشعراء العرب كانت تقليدية فقط لنصوص المتصوفة.

إخفاق بعض الشعراء في تحقيق وتمثل التجربة الصوفية صاحَبَه وجود بعض النماذج التي استوعبت التجربة الصوفية جيدا واحتوتها داخل نصوصهم الشعرية، هذه النماذج التي مثلت الشعر الجزائري الحديث والمعاصر، وجعلته يشارك غيره من النصوص الشعرية العربية، في الاغتراف من هذا المنبع الصافي والعميق وبالتالي " يمكن اعتبار الرؤية الصوفية في الشعر الجزائري الحديث هي بحث مستمر عن الرمز الإنساني في معناه الأسمى ومحاولة وصل الذات بهذا المعنى

لتأصيل جوهريته بوصفه امتدادا روحيا لأصالة الذات في نشدانها للمتعالي والمثال عبر جدلها الدائم من الواقع القائم على التأمل والعيان والاستبصار "

يمكن أن نذكر بعض هذه الأقلام الشعرية التي أبدعت نصوصا شعرية تحمل ذلك التناص والاستحضار البارع للنص الصوفي في كتاباتهم، من هؤلاء نجد الشاعر الإسلامي مصطفى محمد الغماري في جل أعماله الشعرية، بالإضافة إلى ياسين بن عبيد وعثمان لوصيف، وعبد الله حمادي و عبد الله العشي.. سنفصل لكل شاعر من هؤلاء في محاضرات مستقلة.

من خلال ما سبق يمكن اعتبار التجربة الصوفية ملجأ وملاذ اتخذه الشاعر الجزائري معبرا بها وبواستطتها عن كل معاناته واحباطاته، مستغلا كل رموزها وموضوعاتها.

سنحاول في الأوراق البحثية التالية أن نقدم عرضا وجيزا عن الأثر الصوفي لدى كل من الشعراء الجزائريين: **ياسين بن عبيد، عثمان لوصيف، مصطفى محمد الغماري.**

✓ أولا/ الأثر الصوفي في شعر ياسين بن عبيد:

يعد الشاعر ياسين بن عبيد من الشّعراء الّذين برزوا على الساحة الشّعريّة الجزائريّة في فترة التسعينات – في ظل تغيراتها السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، والذي عاصر **القصيدة العربية الجزائرية والمعاصرة، والّتي " أهلته لأنّ يكتب قصيدة التصوف"، فتجربته الشعرية الروحية تنزع إلى** صوفية استغراقية تختلف عن سابقاتها من حيث انبناءاتها كما يقول عمر بوقرورة، فهو يميل إلى الحداثة بجميع خروقاتها وانزياحاتها.

يصف الناقد عبد الحميد هيمة ديوانه "الوهج العذري بأنه " **رغم صغر حجمه فانه كبير في معناه، إنّه ترنيمة عذبة في حب الله وأغرودة صافيّة في تأمل العالم، وقراءة صفحات الكون النّاصع الجمال، كما أنه إيغال في ذات شاعرية هدها الواقع بانكساراته، وهزائمه المتلاحقة، فراح يبحث عن العزاء في عالم الفن والإبداع "**، فأهم سمة تطبع شعر بن عبيد هي تلك النزعة الصوفية التي عبرت عن تجربته المعتقة بالموروث الصوفي العربي. يقول في إحدى قصائده الصوفية الموسومة بـ (أغنية النار الخضراء):

يـــا صـــباها تنهـــدت نظرتاهـــا كـــــلام كواحـــــة فـــي فـــــلاة
غـــنّ قالـــت ومـــا عليـــك عتـــاب وقـــف العمـــر شـــادي المأســـاة
غنـــى.. غنـــى فأنـــت شـــهودي يـــا ذهـــولا علـــى مشـــارف ذاتـــي
قلـــت للـــرمش والبقايـــا شـــهود أنـــت منفـــاه أنـــت كـــل حيـــاتي

وانســحبنا إلــى ضــفاف التلاشــي ثــم قلنــا: هنــا بقايــا الحيــاة!!

ربّ منهــــا جلالــــة وشضــــايا وزعتنــي فمــا التقــت أشــتاتي

هــي (أدنــى مــن الضــمير إل الــوه م وأخفــى مــن لائــح الخطــرات

ربــة النــور، قــل لهــا كيــف أنســى كيــف أخفــي الهــوى بحــزن ســمات

كيــف أنســى وكنــت آنســت نــارا واصــطلينا ونحــن واحــد ذات

لا حلــول.. ولا اتحــاد.. ولكــن للهــوى شــرعة .. ولــي ســكراتي

من خلال قرائتنا للقصيدة نلحظ حضورا للنزعة الصوفية من بينها: الحب الإلهي، رمز المرأة، رمز الخمرة.

فالقصيدة تجربة عاطفية روحية يتجلى فيها الحب في أسمى معانيه وصفاته، حب انطلق من المخلوق إلى حب الخالق، حيث شكّل حضور المرأة الرمزي في القصيدة إحالة غير مباشرة لحب الذات الإلهية، إن استدعاء الشاعر للرمز الأنثوي يدل " على انخراط الشاعر في دين المحبة، والشوق للمحبوب، والمحبة شراب لا يرتوي منه صاحبه مهما شرب منه.." ، وهو حب لا يسعى لتحقيق الاتصال الحسي، بل يروم التوحد مع المحبوب، حب روحي يتوجه من " أعلى إلى أسفل (من الناسوت إلى اللاهوت) أو من السطح إلى العمق (الارتداد إلى الذات).." ، رغبة في الوصال والاتصال بها. إلى أن يصل الشاعر إلى مرحلة الانتشاء بالمحبة الإلهية من شدة التوحد والفناء فيها، وذلك عبر السكر الذي يصل إليه ويوصله إلى أن يمتلئ قلبه بالحب الإلهي

فعاطفة الحب هنا عند الشاعر الصوفي رؤية كونيّة، تسعى للتوحيد بين الحب المادي، والحب الإلهيّ، **"وتلك هي جدليّة اللقاء بين الحب الجسدي، والحب الروحي، والّتي يتولد عنها الحب الصوفيّ ، يوصل هذا الحب إلى حالة من الوجود الأعلى، والوعي الأعلى: يتحد العاشق والمعشوق، في حبه بلاحد. يشعر المتصوف أنه تحرر: يخرج خارج ذاته، خارج الحدود الطبيعية، والحسية. (يخرج من ذاته لكي يدخل، بشكل أعمق وأبعد، في ذاته) "**

فاستحضار الشاعر يا سين بن عبيد للمرأة والشعر العذري كما رأينا في القصيدة أنما ذلك تجلّ للجمال الإلهيّ؛ **"وذلك لما بين العفة في الحب، وبين الزهد من سمات مشتركة، وملامح متشابهة؛ ففي كليهما نزوع إلى الإعلاء والتسامي، وشعور حاد بالتحريم الجنسي، ورغبة في تحقيق ضرب من الانسجام والتوافق بين ما يرغب فيه وما يخشى منه"**

ويتحقق هذا الانسجام باقتران القدسيّ بالإنسانيّ، فتصبح المعشوقة مرآة تعكس جوهر الجمال المطلق. ولعلّ "**مما يتمم التناظر بين شعر الغزل العذريّ وشعر الحب الصوفيّ، أنّهما بمعزل عن المآرب العاجلة الموقوتة، أو قل إنّهما يحققان مقولة: الحب للحب**"

بالإضافة إلى رمز المرأة أثث الشّاعر نصه الصوفي العرفاني برمز" الخمر" الّتي يتخذها الشاعر رمزا للهروب من الواقع المتردي " **فالسكر.. دهش يلحق سر المحب عند مشاهدة جمال المحبوب– فجأة – فيذهل الحسّ، ويلمّ بالباطن فرح وهزة وانبساط، لتباعده عن عالم التفرقة**" ، ويتجلى ذلك في الأبيات التالية:

سـقنا.. مـن هواجرهـا العـذابا وهـل تخشـى معذبـة.. عتابـا ؟؟

تـراءت فـي نوادينـا.. شـهابا يقـلّ الروعـة الكبـرى.. التهابـا

تهـادت فـي يـديها الكـاس نشـوى أدارتهـا.. حنينـا.. واجتـذابا

يصفها أيضا بأنها شمس تسعد الكون بإشراقها، كما هي خمرة عمرو بن كلثوم صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها يقول:

أيـا شمسـا.. نعانقهـا سـكارى أعنّـت.. فـي مشـارقها.. الـرّقابـا

وفـي ألوانهـا.. الخضـراء غـارت وعـزّت.. دون شـانئها.. جنابـا

فمهمـا غصـة البعـدين طالـت وغاصـت.. فـي مناحرنـا.. حرابـا

ومهمـا زلـت.. والـدّنيا زوال تـزالين.. الأمـاني.. والطّلابـا!!!

وقوله:

وعـدت وذيـاك النـديم مصـافحا بوجـودي وأحـوالي وصحوتي وسـكراتي

فالشاعر هنا يعبر عن صحوته وسكره؛ حيث إن مبعث حالة السكر عند الصوفي هي المحبة الإلهية. فالسكر عند الصوفية هو " انتشاء الصوفي (المحب) بمشاهدة جمال المحبوب ومطالبة تجليه في الأعيان؛ إنه دهشة وانبهار وحيرة ووله، وهيجان، وفي السكر يلم بالباطن نشاط هائل، وفرح زائد يطلق للصوفي العنان فتكسب لغته طرائق جديدة في التعبير"، ومثال ذلك في قوله (لا حلول ...ولا إتحاد...ولكن للهوى شرعة... ولي سكراتي).

إذن ومن خلال ما تقدم نرى أن الشاعر ياسين بن عبيد غاص في عالم التصوف وتشربه لغويا وذهنيا في رحلة البحث عن وجوده الحقيقي، فراح يتقرب لهذه الذات القلقة بالكلمات،

وينسج لها بخياله الصور والتراكيب والرموز الصوفية التي تشفي غليل روحه التواقة للحرية والأمل والصفاء.

ثانيا/ الأثر الصوفي في شعر عثمان لوصيف

يعد الشّاعر عثمان لوصيف من الشعراء الذين اتخذوا من الصوفية قناعا روحيا ولغويا وملاذا عرفانيا لهم أيضا ؛ حيث تنم مجموعاته الشعريّة – في أغلبها – عن تجربة مفعمة بالرموز الصوفيّة. فهو دائم الاستعانة بالنّصّ التراثيّ الصوفيّ **" لا من حيث المعجم اللغوي وحسب ولكن من حيث المعجم الايحائي والرمزي، بحيث يسعى الى تقمص وجدانات الصوفية في أسمى تجلياتها" يقول في إحدى قصائده التي تعبق وتفوح منها رائحة ال**بحث عن المطلق:

السماوات التي لا تنتهي

لم يزل يشربه مطلقها

عندما حلق في أزرقها

والمجرات على جبهته

أنهر يغمره رقراقها

يلمس الضوء فتنساب الرؤى

نلاحظ عند استنطاق القاموس اللغوي والمعجمي لدى الشاعر غناه بألفاظ صوفية تتواتر في دواوينه الكثيرة. " والشعر الصوفي يتميز بأنه، دائما، محلق في عالم الروح، في السماء في النور، في جلال الله، ومن ثم يدرك القارئ له، الفرق بين مرمى الغزل الصوفي والغزل الحسي ونجده في ديوانه "براءة "يعنون قصيدته بعنوان " التجلي": قائلا:

صاعد في خيوط الضياء

نحو عينيك، امشي على درجات الندى

يا شعلة الروح

يا شهقة في دمي

صاعد نحو عينين لالاءتين

هما سدرتي وزمردتي

يصور لنا الشاعر " مشهدا خياليا حيث يصعد على خيوط الضياء طلبا لهذا النور المتلألئ من عيني هذه المرأة المتوهجة بالضوء، ليبين لنا ان عشقه عشق صوفي ينتهي به إلى المقام الرفيع

إلى سدرة المنتهى حيث تطمئن الروح." فـ " السدرة " هي **"البرزخية الكبرى التي ينتهي اليها سير الكل وأعمالهم وعلومهم، وهي نهاية المراتب الأسمائية التي لا تعلوها رتبة"** فهي مطلب كل صوفي عاشق، ولا يصلها إلا أهل الهمة من السالكين **" فالطريق إليها يبتدئ بالسكر الذي يحقق الصعود والارتقاء، وينتهي إلى المحو الذي هو باب القرب".**

ويقول أيضا في قصيدة (تلك صوفيتي) معبرا عن حبه للمرأة الممثلة للذات الإلهية:

تلك صوفيتي

ان أطالع في نور وجهك

سر الحياة

وسر الغوايات

أن أتوضأ بالعشق في ظل عيينيك

يستحضر الشاعر عثمان لوصيف المحبة أو الحب وما فعله في حاله ووجدانه، حيث وصل على مرتبة العشق، والذي يدل استحضاره هنا حسب رأي الناقد عبد الحميد هيمة إلى " عنف التجربة الصوفية لديه إلى حد أن الشاعر يتوظأ بالعشق..." ، وفي ذلك إشارة إلى بغية الشاعر التطهر وتطهير نفسه " من أدران الواقع كما يتطهر المصلي بالماء الطهور .." ، أي أنه يسمو عن الواقع المادي، فيغدو بذلك عشقه طاهرا لا يتعلق بالأغراض المادية بل روحيا عفيفا مخلصا.

يصف ويتحدث "عثمان لوصيف " عن نزعته الصوفيّة: " **النزعة الصوفيّة متجذرة في حياتي منذ الأزل، وهي عندي رؤية ومعاناة ورسالة ساميّة لإنقاذ البشريّة، لقد انتهى عصر النبوات وعلى الشّاعر أن يكون نبي العصر ، والصوفيّة عندي ليست شطحا أو دروشة، وليست انزواء أو انطواء بل هي ثورة شعريّة لتغيير الواقع والسموّ بالإنسان إلى منابع روحه الأولى، إنّها فيوضات المحبة والخلاص، وإنّي أحاول أن أؤسس لصوفيّة جديدة"**، مبدأها الأول الحب والتعلق بالله.

ثالثا/ الأثر الصوفي في شعر مصطفى محمد الغماري:

يصف الناقد أحمد يوسف صوفية الشّاعر مصطفى الغماري _ في أغلبها – بأنها ثورة وصراع بينه وبين شعراء الاتجاه الأيديولوجي الماركسي؛ يقول: "**أتت العرفانيّة الشّعريّة لدى محمد مصطفى الغماري نقيضا لإيديولوجية يساريّة غلب على بعضها الإسفاف الفنيّ باسم الواقعيّة الاشتراكيّة والتحزب السياسيّ، لهذا ألفت لديه عرفانيّة النّصّ الشعريّ نفسها تدخل حلبة السّجال الإيديولوجيّ، ولولا المناخ السوسيولوجي والثقافي الّذي غلبت عليه روح الإقصاء**

والتصفية الثقافية لاستطاع الغماري أن يكتب نصا عرفانيّا خالصا يتضمن رؤيته للعالم دون السقوط في لعبة الخصم لكونه أكثر اقتدارا على الممارسة الشّعريّة وامتلاكا لأدواتها الفنيّة "وصوفيّته تعبير عن اغتراب الفرد والمجتمع في زمن لم يعد الشاعر يحس فيه بالانتماء والوجود، فهو منفي في وطنه، في صراع مع من يخالفه في الهوى والعقيدة والدين والحب، وقد عبر عن ذلك كغيره من المتصوفة "بعبارات عذبة وأبيات جميلة ورموز شفافة "، ومن الرموز الّتي وظفها نجد " **ليلى** العامريّة " في علاقتها بالمجنون:

جدائل ليلى رؤى المشرق

وآفاق إلهامها المطلق

تجلت.. وكان الوجود مواتا

رياضا تموج بالزنبق !!

فقد شكلت (ليلى) المرأة في النص الشعري الصوفي ركنا ومصدرا من مصادره الأساسية " **فمن المعروف عن شعراء التصوف الإسلامي قديما أنهم كانوا يسعتيرون أسماء الشعراء العذريين العرب وأسماء معشوقاتهم كليلى، وبثينة، وعزة ويضمنونها قصائدهم في العشق الإلهي للتعبير عن أذواقهم ومواجدهم الخاصة، كما يتعقبون الأماكن التي ارتادها هؤلاء العذريون**". وهذا مصطفى محمد الغماري يسافر مع ليلى في بعض قصائده الصوفية فيقول:

محبـــــوك يانـــــار ليلـــــى بقايـــــا مـــــن الفـــــاتحين

فللـــــه قمـــــر المنـــــافي ولله جـــــوح الجبـــــين

وأنـــــت، وأن جـــــن وجـــــه هجـــــين كوجـــــه الظنـــــون

ومـــــا الحـــــب لـــــولاك إلا ضـــــباب كثيـــــف كثيـــــف

أحبـــــك أحمـــــل حبـــــي علـــى الكفـــر ســـيف جهـــاد

وأهـــــواك حـــــرف انتصـــــار وأهـــــواك رمـــــز امتـــــداد

لقد اقترن الحب الإلهي عند الشاعر الغماري بأنه أزلي محمولُ على سيف الجهاد على الكفار، وهذا بحكم نشأة الشاعر الإسلامية وتشربه منها، وغيرتها على عقيدته ودينه، إذ طبيعي أن يقرن الشاعر حبه بالجهاد في سبيله، وهو الذي عانى ويلات الاستعمار وما بعده من مسخ وتشويه للهوية العربية والإسلامية.

المصادر والمراجع (الاحالات):